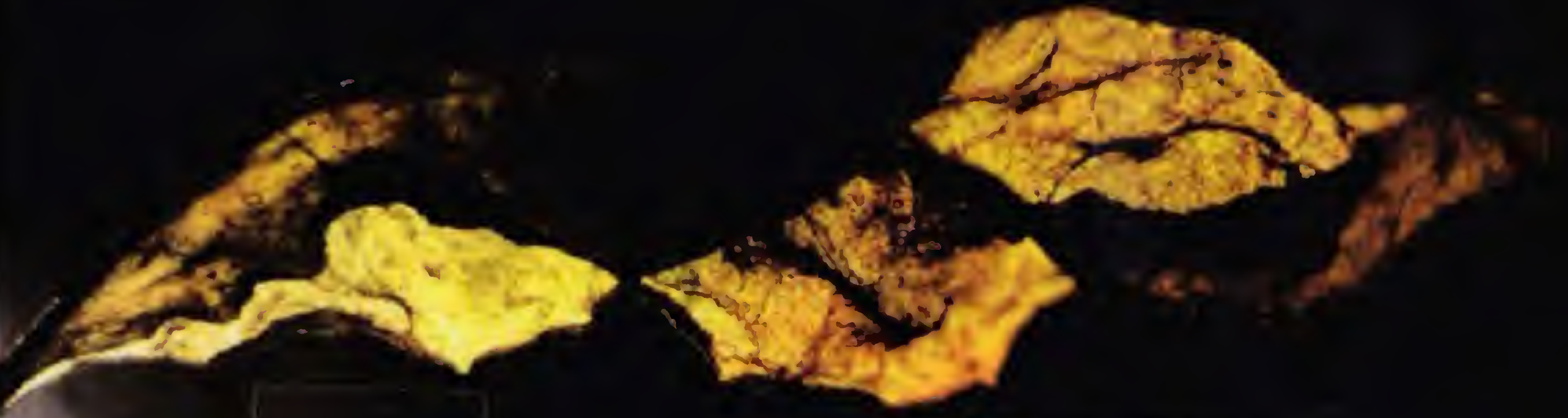
غسّان زقطان

استدراج الجبل





استدراج الجبل

غسّان زقطان

استدراج الجبل



استدراج الجبل / شعر عربيّ
غسّان زقطان / مؤلّف من فلسطين
الطبعة العربيّة الأولى ، ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد ®
صورة الغلاف : ورقة ذهبيّة شبه شفّافة
إرنست هاس / أمريكا

يشبه أن تكون هنا

1997/1994

إلى محمود درويش

الموتى في الحديقة

لا تفتحي الشبّاكَ
لا تستيقظي ..
أرجوكِ لا تستيقظي
كانوا على عشبِ الحديقةِ يرقصونَ ،

كأنّهم سببُ الحديقةِ
أو تأمُّلها
.. وكانوا يصرخونَ هناكَ ،

تحتَ الضوءِ ..
كان غبارُهمْ ينحلّ .

كانت أمطرتْ في الليلِ
.. طول الليلْ ! ، .

أصوات مجاورة

إلى جميل حتمل وأمجد ناصر

أمسِ انتبهتُ على خطى فرحانةٍ
وسمعتُ بسملةً
وكان غبارُها يبكي .

وكنتُ رأيتُ سيّدةً . . .!
أضاءتْ برهةً . . وتبدَّدَتْ
لكنّ معطفَها تأخَّرَ في الظلال .

. . سمعتُ موسيقى من القبوِ المجاورِ
آلةً وتريّةً تهوي وتذبل
ضحكةً وصلتْ محطمةً من الأنفاقِ ، تحت البيتِ ،
حول خيوطها زمنٌ
وثمّةَ معدنٌ رطبٌ يقود حيادَها ،
ورأيتُ فيما يبصرُ العميانُ
صوتاً في الحديقةِ ،
هيئةً

وتنفّساً

.. وأفقتُ وحدي

عندما نبعتْ من الجدران همهمةٌ

ستشبه أنْ يقولَ لكَ الهواءُ : هنا ... هنا

أو أن يقولَ لك الهواءُ : هنا ..

هنا

من في المدينة غيرنا !!

إضافات للماضي

الرسائلُ في غرفةِ الأرملة
في سلةِ القشِّ
فوقَ الفراشِ المنقّى من النوم
في نيّةِ الصومِ ، تلك التي في هواءِ الممرّ ،

الخضارُ التي تُشترى عادةً في الصباحِ
التذاكرُ ،حافلةُ الفجرِ يومَ الخميسِ ،
الوسائدُ
والشمعُ
والصبرُ . . ، حيثُ الدعاءُ المدلّلُ في العشيِّ ،
طرفُ الخزانةِ من فرجةِ البابِ
والبابُ . . حين الترانيمُ تصبحُ ملونةً كالمناديلِ في عتمةِ السهل .
ظلُّ الهواءِ
الروايةُ . . ، تلك التي لم تُعِدْها الى الرفِّ ، لا تستطيعُ التذكُّرَ !
أبطالها يسقطون على الأرضِ موتى
فتكنسُهُم واحداً

واحداً
بالمقشّة واللومِ والأدعيةْ .
الرسائلُ لم تنفتحْ بعدُ . . . ،
والميّتونَ
يعودونَ من فرجةِ البابِ
كي يسرقوا المزهريّةَ
والشرشفَ البرتقاليَّ
والأغطيةْ .

إعادات صامتة

في الأربعينَ إذنْ !
لم يزلْ واثقاً أنّهُ لم يكنْ ما يريد
لم يزلْ خائفاً من تبدُّلهِ
. . . بينما يذهبُ البيت !

ينسلُّ في طرق لا يرى خيطَها ،
حين لا يستطيعُ التأكُّدَ
من مِقْبَضِ البابِ
أو من يدِ البنت . . .،

. . ضيّقاً كان وقتُ الروايةِ والموتْ
ضيّقاً كان وقتُ الخيانةِ . .

كانت خيولٌ من القشِّ
تصهلُ في لوحةِ الزيت !

عودة

-١-

الجروحُ العميقةُ في الأرضِ
والخوفُ في تمتماتِ العقود .

البساطُ المناسبُ فوقَ الترابِ
الحديقةُ في الليلِ
والجسرُ في آخرِ المنحنى

.. لم نصلْ بعد !

ليس بعد

كلّما قلتُ أمضي
أو تهيأتُ للانصرافِ
تنادي عليَّ الوجوهُ التي كدتُ أنسى
وتأتي البيوتُ التي كنتُ فيها
وأحنيتُ رأسي على طوبِها
أو بمرّاتِها
ونوديتُ من مائها
حيثُ تحبو الى أبدِ الآبدين الغُرَفْ .

كلّما قلتُ أمضي
تجيءُ الأغاني التي خلْتُها لن تعودَ
وتطرقُ بابي الأيادي القديمةُ
تلك التي فكّرتْ بي
أو رَعَتْ طُرقي في زمانٍ . . تبدّدْ .

نفس الأيادي التي طوّقتْ مِعصمي

والتي أمْسَكَتْ ياقتي
والتي أيقَظَتني من النومِ . . . ،
موتى
وأحياء

في البابِ
يا . . . سيّدي
يا . .
مُحَمَّدْ !

عودة
-٢-

لم يكونوا هنا
المواقدُ دافئةٌ
والحريرُ على الأرضِ
.. رائحةُ النومِ والقشِّ تُعمي المكان .

صوتُ ارتطامِ النباتاتِ بالخيلِ ،
ما ظلَّ ..
أو ما يشي بانهمارِ الدفوفْ .

لم يكونوا هنا
الموائدُ مرصوفةٌ للجدارِ
الزجاجاتُ فارغةٌ كلُّهاَ
والكؤوسُ على حالِها ..

مثلَ زهرٍ قتيلٍ نما في الرفوفْ .

أعداء

في سفينَتِهِمْ
يهرمُ الصوت
بينما يبصرُ النائمونَ قرابينَ أجدادِهم
وهي تمشي على الماء
حيثُ الروايةُ تقتلُ أَولادَها
ثمّ تهبطُ في الليلِ من ظِلّها
آمين ..
آمين
في إثْرها
والقرابينُ
والنافخونَ

وفي إثْرهم كلّهم
يُولَدُ الزيتْ !

الخادمات

الهبوطُ الخفيفُ من الليلِ نحو الممرّ
القميصُ المجاورُ
والعابرونَ الى قصصٍ في الجوارِ
. . وأيضا لتلك الفتاةِ
وللرجلِ الكلبِ
والحرسِ الباهتينَ :
السلامُ عليكمْ
على السبت
حيثُ « المَعلِّمُ » يضحكُ في غرفةِ البنتْ .

الوقوفُ قليلاً على البابِ
والبحثُ عن سببٍ للنجاةِ
. . وأيضاً لصاحبةِ الكلبِ
والخادماتِ
وللبيتِ في أوّلِ العمرِ
حيثُ الثلاثاءُ والأربعاءُ وباقي الخميس

وللميّتينَ
وللخادماتِ
... السلاَمُ على الخادماتْ .

كومبارس

-١-

يا أختَ الملكة
لم يعْرِفْكِ الحطَّابونَ
ولم يذَكركِ رواةُ السهل

رماةُ القصرِ المرويّونَ بماءِ الذهبِ
تنحّوا حينَ مشيتِ أمامَ البرج
الحارسُ ذو العينينِ الغامقتينِ
الخائفُ من تهويمِ السهلِ
ومن تجّارِ الخانِ وقصصِ الماء .

ظلالاً كان المَلِكُ على جدرانِ القلعةِ والأبراج
ظلالاً كان على أشجارِ الحرش
وثوبِ الملكة . .
والأسيجةِ وندفِ الثلج .
ظلالاً كانَ المَلِكُ على المملكةِ
وصيفِ هزائمِها العمياء

.. وكان صياحُ الحطّابين يزوْبعُ في الأُحجية
ويندفُ قشٌّ العتمةِ ...
حين الحارسُ ، ذو العينينِ الغامقتينِ ، وحيداً كان
يسيلُ على أحجارِ القلعةِ
والأدراجِ
أمام البرجِ .

طريق النحل

شمسٌ في الطريقِ
وخمرةٌ في النخلِ
« توزر* » !
حيثُ يطلِقُنا الجنوبُ معفَّرينَ
وفي الشمالِ .. تنامُ «نابلُ* »
في يد الخزّافِ .
في الأعلى
أمام النسرِ
أو في ريشه المبيضِّ
تنسجُ وردةُ القرميدِ بيتَ «الكاف* » .

أقصى الشيءِ
اذ تتبدّلُ الأشياءُ
أو نُنسى ، هناك ، على طريقِ النحل !

* مدن تونسيّة

القيروان / ربيع ١٩٩٤

أشعلي النارَ
ثمّة أيامُنا لا تزالْ ،
لا نارَ في تُرَّهاتِ الرجالِ ، كما تعرفينَ . .
ولا شمسَ في السورِ
والناسُ أحلافُ أيامِهم .

أشعلي النارَ
أو هيّئي ما يشيرُ لفسقيّةِ « القيروانِ »
وقبر الهلاليِّ تحتَ الرباطِ
وتجوالِنا . .!

حيثُ لا شكَّ أنّا
نُنادى بأسماءِ جدّاتنا
من فتوحِ الشمال .

كومبارس
-٢-

البغالُ التي في الخرائبِ
من مرَّ عنها
ليطعمَ وحشتَها وَهْيَ تبكي ؟

البغالُ التي في الخرائبِ
من مرَّ عنها
ليسقي توحُّدَها
أو ليغسلَ أعناقَها الميّتة ؟
.. من أتاها ليذكُرَها
وهي تَسْوَدُّ في نومِها ...
أو لينفضَ عنها الظلال ؟

البغالُ التي في الخرائبِ
تطوي قوائمَها في الهواءِ المكدَّسِ
فيما السلالةُ تطفو على الضوءِ
أيقونةً من ترابِ العجائبِ ...
والأَحجيات !

الكلب والساعة

كان رتلُ الجنودِ اليهودِ يُنقِّبُ شَعْرَ الهواءِ
ويبحثُ عنّا
وعن أهلِنا في « الكرامة »

كانت تدقُّ !

فيعدو بنا الوقتُ . .
حتى الضواحي القريبةِ « للسلطِ »
والنهرِ . .
ساعتنا تلكَ
فوق الخزانةِ
في بيتنا

في « الكرامة » .
. . كان النباحُ يحاولُ أن يفتحَ البابَ من أوّلِ الليل
كان الركامُ على الأرضِ حيثُ انتهى بيتُنا والخزانة

والنخلتانِ
وكلبُ الحراسةِ
واللوحُ في غرفةِ الصفِّ . .
والصفّ .

كانت تدقُّ !
. . وكان النباحُ المنقَّطُ يسقطُ من فروةِ الكلبِ
فوق الممرِّ
وفوق الوسائدِ
والنوم
والشاَي . . والزيتِ
والساعة الخامسة !

كمن ينتظرني

حين أذكُرُهُ
واقفاً تحتَ ضوءٍ خفيفٍ
كمن ينتظرني لأذكَرَهُ
حين أشباحُنا
تهبطُ الليلَ من سلَّمٍ في صلاةِ العشاءِ
على مهلها
. . . .

التراويحُ في إِثْرِها
والتسابيحُ
والنومُ في جنّةِ الراجعين .

.. كمن ينتظرني ليخبرَني :
نحنُ في خيمة الأربعين .. معا !
أو لأخبرهُ :
يا أبي

لا دعاةَ لنا في النواحي
لا رواةَ لنا في الكتابِ
ولا تابعين !

لم تعد هنا

ليَحْفَظها اللهُ
ولْيَحْمِها تحتَ شمسِ الطُرُقْ
ليُشعلْ على دربها شمعةَ الأولياءِ
وأنخابَهمْ في حقولِ الزمن .

ليَحرُسْ من رحيلِ الحديقةِ في آخرِ العمرِ
من صيحةِ الذاهبين
ومن نومِها . .
لم تكن مثلَ باقي النساءْ !

لم يزلْ كأسُها حائراً بالنبيذِ الذي فيهِ
ومعطفُها في الخزانةِ ، ذاكَ الذي ينحني عندَ أكمامهِ الطير ، .

ليذكرْ لها جنّةً في الكتابْ
ولتكنْ في الرضى دائماً
وليقلْ من رأى ضوءَها في الفراشِ :

رأيت . .!
ومن أذهَلَت ْ روحَهُ وَسْوَسَاتُ الأساورِ
في عتمةٍ فوقنا كالثيابِ :
سمعت ً . .!

أغنية فقط

شكراً لأنَّ النهرَ يجري
والقرى تمرُّ على الطرقاتِ
والطرقاتُ أبوابٌ مشتْ في نومِها
والنومُ ظلُّ الموتِ
أوّلُ أرضِهِ البيضاء
والموتى معي
يتنزّهونَ أمامَ بيتي
عزّلاً ومسالمين
« تصوّروا » ومضوا
فرادى
لا مساءَ لهم
ولا بلوى ...

.. وشكراً للمساء .

عودة
-٣-

ثمّة ما يحدثُ
الهواءُ يرتعشُ في الأعلى ،
عند خطِّ الخرائب ،
دفوفٌ خافتةٌ تكادُ تصل
خطواتٌ ، ربما ،
أو مناداة . .

الأجدادُ
عادوا ليناموا في العلّيات .

ليس كالوصف
(١)

ليس كالوصفِ ولا كالحيلة
الذهابُ
رائحتي بعدَكَ
وفُرْجَتي
ولُقْيَتي الدائمة .

بلاغتي من أجلكَ .

ليس من وقتٍ لاعتذارِ العتبةِ
وتأمُّلِ الخطيئةً .

ليس من وقتٍ لتبريرِ الصيحةِ
ووصفِ العلامةً .

ليس من وقت . .
لأبحثَ عنكَ

أو أتداوى

أمشي فأجدكَ
.. وهكذا .. ،
لأمشي أفعلُ كلَّ هذا .

-٢-

في الأصواتِ أترقّبكَ
الخيطُ ،
غامقاً وعميقاً مثلَ الريحِ ،
أنت .

من الهواءِ
أنتقيكَ بحدْسي
وأرشدُكَ اليّ .

أتأمّلكَ وأنسى
أنّ الغبارَ يحرُسُنا .

الموتُ خيانتُنا الوحيدة
وملاذُنا الصابر .
أمسكْ خيطي
كما أُمسكُ خيطكَ
لنظلّ .

كومبارس
-٣-

(١)

حين أغلَقَت النافذةَ ،
في المشهدِ الأخيرِ ،
ظلّتْ رائحَةُ الياسمينِ
تمسكُ المارّةَ
وتعيدُهم الى الوصف .

رائحةُ الياسمينِ
المتروكةُ دون تدَخّل ،
كثيفةً ومعتمةً ... وحيّةً ،
أكثرُ قليلاً مما ينبغي !

(٢)

في مشهدِ الغرفةِ المضاءةِ

قبل أن تلتفتَ إلى جهةِ القارىءِ
كان ظلُّ الستائرِ
قد وصلَ إلى المزهريَّةَ
وأصابَ الوردة .

(٣)

حين مشتْ نحو الشرفةِ
لم يكنْ واضحاً
أنَّ ثمّةَ شبحاً هناك
امرأةً ، غالباً ،
أقلَّ جمالاً
بقميصٍ أبيضَ
ويديْنِ بدينتيْن .

(٤)

غبارٌ وصلَ الى الرفِّ

كان على تمثالِ الزجاجِ
وصورةِ الأبِ
وقاموسِ الجيب
. . . غبارٌ
وليس أيَّ شيءٍ آخر .

ما فكّر به دائما

غنائياتٌ قصيرةٌ وحادّةٌ
مثلَ سهامٍ من الفضّةِ
تصلُ الى مُقاصدِها كَاملةً
ومقفلة .

غنائياتٌ محكمة
حيّة
وقلقة
ومبنيةٌ جيداً . . .

هذا ما فكَّرَ بهِ دائماً ، .

ترنيمات

«فرائضك صارت ترنيماتي . . .»

مزامير ١١٩ ، ٥٤

ترنيمة الممرّ

-١-

المَمَرُّ المرتَّبُ في صوتِها
للكلامِ الصغير

الممرُّ الذي يكسرُ النومَ
كيما يسيلَ المنام

سوفَ تُهْمِلُنا وردةٌ فيهِ
زنبقةٌ ، ربَّما ، . .

حينَ تَنبشُ جارَتُنا نومَها كلَّهُ
كي ترانا هنا في الكلام
أوتفكّرَ بالشام

لَيْتَها أُختُنا
أو هي الآن !

ترنيمة النائم
-٢-

أصعدُ النومَ
أدراجُهُ سبعةٌ ،
أنت في النوم
مرثيَّةُ الذاهباتِ
وأيقونةُ اللوم ،

أصعدُ النومَ
أدراجُهُ سبعةٌ . . .
بالتمامْ .

ولا يحدثُ الأمرُ
أو ينتهي . .!

أُشعلُ الضوءَ
كي يبصرَ الميّتونَ المنام .

ترنيمة المشتاق
-٣-

بَيْتُها
بَيْتُها !

... والزجاجُ المُعشَّقُ في بيتِها
في دمشقْ
والنسوةُ الحائراتُ من الهجرِ
والصبرِ
والشوقْ ..

والآخرونَ الذينَ على ظلِّها يَحْدُثونَ
كما فوقَ سُرَّتِها يحدثُ الثوب .

الرضى والندامة
والبحثُ عن نيّةٍ للسلامة
... كالنومِ في نومِها دون ذنب .. ، .

صوتُها
صوتُها !
حيثُ يأتي الكلامُ على مهلهِ كي
يرى .

ترنيمة الدفّوف
-٤-

الحنينُ الذي في ظلالِ الدفوف
الحنينُ الذي يُشتَرى بالَذهب
مَن رأى ضوءهُ
ثمّ لمْ يتّبعه؟ !

الحنينُ الذي لا يؤدّي إليهِ
ولا يَرْتدي أحداً
أو سبب !

صيحةٌ بين نومٍ ونوم .

دهشة ٌ عرضُها القولُ و الصمت .

مرثّيةٌ لا تجيءُ من الموت ..
، تمضي بهِ ، ربّما ،
أو تؤدّيهِ

أو تجمَعه !

الحنينُ الذي في ظلالِ الدفوفِ
الحنينُ الذي يُشتَرى
من رأى
ثمَّ
لم .....!

ترنيمة الكؤوس المكسورة
-٥-

الكؤوسُ التي انكسرت
كنتُ أَعرِفُها واحداً
واحداً
كنتُ أرقُبُها وهي تطلقُ ضحكاتِها
تحتَ ضوءِ الكلام
وهي تَغمِزُني بينما يكذبُ الشاربون على صحوهِم .

الكؤوسُ التي انكسرتْ
لم يعدْ ممكناً
أن أنظِّفَها من غبارِ النميمة
أو أرتِّبَها ..
نقشةً
نقشةً ..
في الخزانة !

ترنيمة الابنة
-٦-

.. ليس لي ابنةٌ كي أقولَ لها :
يا ابنتي ..
حاولي أن تنادي عليَّ إذا نمتُ
أو ذكّريني بأنيّ هنا ..
إن نسيتُ

، .. أنا صرتُ أنسى كثيراً هنا
دائماً .. صرتُ أنسى !

ليسَ لي إبنةٌ
كي تمسّدَ شعري
وتغمضَ عينيَّ .. ،
شعري الذي لم يشبْ بعدُ
أو يبتعدْ عن مخدّاتِ أمّي كثيرا
وعينيَّ ...
حيثُ اهتدى من روى .. للمياه .

ليس لي إبنةٌ
كي تعيدَ إلى القلبِ
ما كان يسقطُ من عِشرَةِ الناسِ
في طرقٍ لا يراها الرُواه . . ، .

ليسَ لي إبنةٌ
كي أرى شَعرَها
صافياً . .
في الممرِّ الذي لا أراه !

ترنيمة الأميرة

-٧-

عاشقٌ واحدٌ كان يروي
عاشقٌ واحدٌ كان يُبصرُ

.. في آخرِ اللونِ
كانت تمشّطُ أخطاءَها بالظّلالِ
وكانت تزيّنُ أجسادَ جدّاتها الخمسِ
حتّى يَعُدْنَ من الماءِ بيضاً
كما فكّرتْ أن ترى ،

عاشقٌ واحدٌ كان يسمع .

ترنيمة الخيول
-٨-

الخيولُ
الخيولُ
التي عفَّرتْ هدأةَ السهل !

الخيولُ
الخيولُ
التي انشقَّ عن عَدْوِها النخل !

الخيولُ التي تسحبُ الشرقَ
من ياقةِ الرمل !

الخيولُ
الخيولُ
التي في المرايا وفي الشعرِ
محروسةٌ بالظِّلال .

الخيولُ
الخيولُ
التي تعبرُ الأُفْقَ
منقوشةٌ في الهِلال .

الخيولُ التي أَطلَقتْ أهلَنا
من ثيابِ الدخانِ
وألقَتْ عمائمَهم في الزمان . .

وما انتظرتْ أنْ نقول

الخيولُ
الخيولُ
الخيول !

ترنيمة البعد عن الشام
-٩-

يستطيعُ انتظارَكِ ، أيضاً ، ليومٍ أخير
وأن يجعلَ الماءَ خمراً
وأن يُشعلَ النارَ من نجمةٍ
أو يفكّر بالجسرِ ..
حتىّ يرى العشبَ والراجعين .

يستطيعُ التجوّلَ في نعمةِ الربِّ
من أوّلِ القولِ
حتّى الثناءِ على آخرِ التابعين .

.. يستطيعُ التذكّرَ
والمشي في حارةٍ في دمشقْ ..

، ليتَنا لمْ نَكنْ
في أغانيك تلكْ
ليتَنا لمْ نَبِعْكِ

ولـمْ نَشْتَرِ المُلْكْ
ليتَنا لـمْ نَعدْك
ولـمْ نَنْهَرِ البَحرَ والفُلْكْ ،
من أين ينظرُ للشام
أبوابُها سبعةٌ
رملُها ياسمينُ
وحارِسُها لا ينام !

ترنيمة المقامر
-١٠-

لا لومَ ،
ثمّةَ من أحبٌ
ومالَ مركِبُهُ
ومالْ .

لا لومَ ،
موجٌ من خساراتِ الحديقةِ
والرضى
والنوم
موجٌ مَن ظلالْ .

لا لومَ ،
لم نذهبْ بعيداً
مثلما فعلوا
ولم نذهبْ
ولم نقطفْ زهورَ الميّتينَ

لِيَدخلَ الموتى عراةً في المنامْ .

شيءٌ سيشبهُ أن نعيدَ الى التأمّلِ
غرفةَ الماضي وروحَ المزهريّةِ
مثلما
: طارَ الحمامُ ،
كما يقولُ الشاعرُ العربيّ ،*
. . . أو

حطّ الحمامْ !

---

* محمود درويش

ترنيمة المنفي
-١١-

لا أناديك زلفى
ولا أهتدي عنوةً
إنّ لي نبأً في ثنايا الكلامِ
ومنفايَ . .
منفى . . ،

لم يقلْ ذاكَ يوماً
ولمْ . .
كان يَغْرِفُهُ
مثل ماءٍ
وينساه ،

بينما يشربُ العابرونَ
ويدعون للبئرِ

مرّتْ ثلاثُ يمامات

في ميلةِ العصرِ
صقرٌ وأنَثاه
أسماؤُهنّ جميعاً ، خطاياهُ أو أهلُهُ ..

والتردُّدُ !

كان التردّدُ ينهالُ أبيضَ من غابةٍ
في الجوارِ العميقِ
الذي لا يراه

.. حيثُ ينبعُ منفاه !

شاب من الجهير يتندّم*

بيرزيت 1997

---

* الجهير : طبقة في المجتمع الكنعاني أكثر من عبيد وأقل من أحرار ، لا منازل لهم ويسكنون على أسطحة المنازل ويأتون في الغالب من خارج البناء الاجتماعي .

ينبغي أن أغادرَ هذي المدينةَ
لا شمسَ لي في المكانِ
ولا ظلّ
لا حانةً تبهجُ الروحَ
أو موعداً في مرامي الكلام !

ينبغي أن أغادِرَها خلسةً
دون حزنٍ على قلبِها المرّ . . .

لا شأنَ لي باحتفالِ الديوكِ
ولا مقعداً في الحديقةِ
لا رغبةً في الجلوسِ . .

اشترى رحلتي الطير .

لا خوفَ لي
لا جدارَ
ولا خيل !

ينبغي أن أغادِرَها مسرعاً
سوفَ ألقي شرائِعَها للذئابِ
وحكمَتَها للترابِ
وأَخرجُ في الليل . .
مثلما جئتُها ،
قبل أن يلمعَ الشيبُ في مفرقي
حين حرّاً ومرتبكاً مثلَ نبتٍ غريبٍ
توقفتُ في بابِها ، .

كان خطوي أشدَّ
وصوتي أعلى
وصمتي أقلّ .

لقد أتعبَتْني أقاويلُها
أهلُها الفاسدونَ
ونسوتُها الطائشاتُ
ترنُّحُها في المساءِ وأوهامُها
ترّهاتُ الشيوخِ وتوبةُ شذاّذِها .. ، .

ينبغي أن أغادرَها
كي .. أزيلَ الغبارَ الذي حطَّ بعدي على السرو .

.. وفيما يعودُ الرعاةُ من البئرِ
والحكماءُ البليدون من حفرةٍ في الظلال
وفيما يعودُ الدعاةُ من الليلِ ..
حيثُ الشبابيكُ تصرخُ في الرملِ

قبل أن يهرعوا ، كلُّهم ، نحو أحلامِهم
حيثُ ينفكُّ خيطُ الغواياتِ
بين الحرامِ وبين الحلال

بينما يقلبونَ النهارَ على ليلهِ ...
مثلما عادةً يفعلون

أكونُ على حافةِ السهلِ
في أوّلِ السروِ
خلفَ
التلال .... ، .

أغاني الموتى

1994-1990

مشهد

يصعدونَ بلا وصايا
صمتُهم يعلو على قاماتِهم
وحديثُهم سَيَقلُّ في الأَعلى
ويُسْمَعُ صافياً في السهلِ
نومُ الكائناتِ
وعزلةُ القتلى
وتحتُ
ترن ُّ أجراسٌ من الأسفِ العميقِ
وتحتُ ..
أقواسُ التلالِ توزِّعُ الضوءَ القليلَ
وتحتُ ..
.. يتَّصِلُ المكانُ بغيرِهِ
ويُرى اتساعُ الأرض
حيثُ سيجلسونَ بلا نوايا .

حضور (١)

ثمَّةَ من يخلطُ الأمرَ في الليل
من يُمسكُ القلبَ
من يُشعلُ الضوءَ في غرفةِ الميتين !

فجأةً يصمتُ الكلبُ
يَغْمقُ لونُ الأثاث !

فجأةً .. تضربُ الياسمينةُ أغصانَها بالزجاج !

خطى تصعدُ الدرجاتِ الثلاثَ
خطى في الممرِّ
خطى في الظلالِ
خطى .. كالغياب !

.. الزهورُ التي ذَبُلتْ منذ يومينِ
ترفعُ أوراقَها ..

عازفُ العودِ في لوحةِ الزيتِ
يُرخي أصابِعَهُ
فجأةً . . .
مقبضُ الباب . . . !

حضور (٢)

هو لم يجيءْ
لكنَّ رغبتَهُ أتتْ
ولهاثَهُ دخلَ المكانَ
وشقَّ بين المزهريةِ والزجاجةِ ظلَّهُ
فصمتُّ
كي أدَعَ الهواءَ .. لهُ .

أُغنية العاشق

أنتِ لا تعرفينَ
كلَّ يوم أزوركِ في الليلِ
أروي علَيكِ منامي الأخير
وَنَجْلِسُ حتى يجفَّ الكلامُ .

ونبقى على حالنا تلكَ
ظلَّينِ في الظّلِّ .

ليستْ لنا الأغنية
وليستْ لنا النارُ في السهلِ
.. ثمّةَ من يحرسُ الميتينَ هناك .

أغنية الزوج

في الليلِ
حين تجفُّ مرآتي ويصرخُ صاحبي
وتهبُّ نافذةٌ على السورِ القصيرِ أمامَ بيتي ،
كان يبدو عالياً في الليلِ ،
.. أنت هناكَ واضحةٌ أ مام النارِ
صوتُكِ يلمَسُ الأشياء

ذكرى أننا نمشي أمام البيت
ذكرى نخلتين على ارتفاعٍ غامضٍ
ذكرى انتظار النهر
ذكرى . . .

لا زهورَ على الرخام
ولا تلاوةَ في الهواءَ
. . . تأمُّلُ العجلاتِ يلمعُ في ترابِ الحقل .

تخفقُ ..
عتمةٌ بفراغِها .. وتحطّ

ذكرى
ثمَّ ذكرى
ثمَّ رائحتي
فقط !

أغنية الغريق

ليلاً أتسلّقُ حبلَ الكعكِ وأخشابَ العربات
وأنادي أُختي خلفَ القصبِ على قنواتِ الريِّ

نرسمُ مدرسةً من فخّارٍ أسود
نرسمُ أرقاماً وعرائسَ منْ قصبِ السكّر
أستاذاً ينزلُ من حافلةِ القدسِ صباحاً
يقفزُ زعلاناً في أوحالِ السوق
أولاداً بعيونٍ أدهشها الديرُ وشعرٍ محلوق
جرساً في عنقِ الكبشِ الأبيض
شجراً مغلوباً تحت الشمسِ
وفوقَ مراجيحِ الأعياد .

... كم كان النهرُ سريعاً حين ولدنا !
كم كان القصبُ كثيفاً قربَ النهرِ ، على السبخات !
.. وتحتَ الطين
يُعِدُّ الغرقى سمكاً لشِباكِ الصيّاد .

أغنية الغريب

كان الندى في البلادِ الغريبة يبكي على البابِ
كانت ضفافُ الدروبِ تسوقُ المهاري الى الموتِ
كان المكانُ نظيفاً بأوصافهِ العشرِ
كان الثوابُ على الأرضِ حيثُ انتهى كلُّ وقتٍ بهِ

والمحبُّونَ والأدعياءُ
وما تركَ الأولياءُ
من الخبزِ فوقَ الدعاءِ
معي . . . .

أيُّ أمرٍ سَيغويكَ عَنّي !

كان طيرُ الكلامِ البطيءُ ، صباحُكَ ،
يرمي شعائرهُ في الضحى
كان في القلبِ نومٌ سيأوي إلى ريفهِ كي ينام .

وشيءٌ من العمرِ في ظاهرِ الكفٌ
يروي
وينسى
الوجوهُ التي ذهبتْ لم تزلْ في خيوطِ الهواء
الدروبُ لها صوتُها ،
لو عرفتَ ،
و ما زال للتبغ طعمُ التمنّي
وللقادمين مرايَا الغياب .

رأى واشتهى .

وانتهى
السرُّ
فارفعْ هواءَك
زوّارُ بيتكَ غاوون
أوصافُهم في الكتاب .

محبُّكَ
ما نام شبّاكهُ
أو سها .

أغنية الخائف

كيف أخرجُ من عتمةِ الليل !

ليلٌ كثيرٌ سيبقى هنا
بعد أن تذهبَ الحافلاتُ بهم .

قبل أن يذهبوا
ساعدوني كثيراً على أن أظل .

قبل أن يذهبوا
اندَفَعَتْ وردةٌ من أقاصي الكلام
من الصيفِ
قبل الثلاثين
وانتظرتْ أن أرى .

أُشْعلَتْ شمعةٌ قبلَ عشرين عاماً
ولم أستطعْ أن أرى وجهَها وهي قربي !

قبل أن يذهبوا
اهتزّت الأرضُ
سيلٌ من الأغنياتِ العزيزةِ والقصصِ الغالية
كان يهدرُ خلف التذكّر
والضحك في غرفِ الآخرين

.. سأتركُهم يذهبونَ
حيارى
وراياتُهم عالية .

أغنية المغدور

منتصفُ الليلِ
أو . . . .
بعد .

كنّا هنا
نشتري ثمراً غامضاً
من باعةٍ لانراهم .

عبرتْ عتمةٌ في حقولِ القصب .

حافّة الليلِ
تطوي الطريقَ المعبّد .
البيوتُ تساوتْ هناك .
صراخُ الزجاجِ انتهى .

الهواءُ العظيمُ

انتهى .
قلبكِ الآن . . .
أسودَ .

أغنية الفارس

مطفأةٌ شموعُ الخان
حين أتيتُهُ في الليل .

مطفأةٌ وباردةٌ ذراع الباب
حين دفعتُهُ ودلفت .

لكنّي رأيتُ يداً تناديني
يداً سكرانة ..
ولمستُ مائدةً من الخشبِ المبلّلِ بالنبيذ
وكان خلفي الضوءُ
أحزمةً .. تشقُّ الباب
تتبعُ
خطوي المبتلَّ ...

ما زالت هناك إذن
تحدّقُ بي عيونُ الخيل !

أغنية المفقود

فرادى في الممرِّ رأيتُهم
وسمعتُ صيحتَهم
فرادى
وانتظرتُ
كرميةٍ في الظلِّ
أحلمُ بالهواءِ
ممزَّقاً . .
لمَ
لَمْ
أُنادَ . . . !

أغنية الدورية الأولى

وكنّا وحيدين في عزلةِ البيتِ
والدارُ من حولنا تسحبُ الضوءَ ،
ذاك الذي ضاعَ منذ الظهيرةِ بين الأواني ، .

من الشجراتِ الثلاثِ الوحيداتِ في الليل ،
ذاكرةُ السهلِ تلك وأجراسُ أمواتهِ النائمين ،
تطايرَ صوتٌ . .
ومرَّتْ من البابِ إمرأةٌ ، في الثلاثين ،
نادتْ على زوجها ،
الضوءُ في صوتِها كان يعدو ، .

لكي يهتدي ،
ربّما ،
الضوءُ !

أغنية الدورية الثانية

. . . في الليالي الأخيرةِ
كانت ثلاثاً ،
سمعنا صياحَ المغنّين في النقش .

سمعنا صراخاً على الضفّةِ الثانية .

. . والنواقيسُ ، تلك التي لا نراها ،
ترجُّ الهواءَ على غيرِ عادتها
والرعاةُ النصارى يسوقون قطعانهم في غبارِ الطرق .

سمعنا على البابِ طرقاً خفيفاً
وتحت الشبابيك دبَّت خطى من ترابٍ وقشّ .

أغنية الدورية الثالثة

اسمحْ لنا ..
سنطيرُ
وأذن بالذهاب .

كذبوا علينا
كنتَ تعرفُ !

منذ أنْ لمْ يرجع القتلى
ومنذ تشقّقتْ أجسادُهم
لنرى الغياب !

أغنية الدوريات الثلاث

لم نجىءْ بالنجوم
لم نجىءْ بالنبيذ
لم نجىءْ بالصَدَفْ .

لم نكنْ في السماء
لم نكنْ في الكروم
ولم نقطف البحر .

هل صدَّقَ الريفُ حقّاً
وهل صدَّقت أمُّنا
أنَّهُ ينقطف ؟ !

انتظار

كأنَّها « الرحمنُ »
تهبطُ من سفوحِ التينِ
صافيةً
.. مجللةً
بها وترٌ من الأذان
بشرى الميِّتين ،
لها رنينُ الخيل
ذكرى السيف
ظلُّ تعارفٍ وبَكاء
بهجةُ عابرين
.. ونعمةٌ بيضاءُ تمسحُ وحشةَ الطرّاق .

حقلٌ واسعٌ للضحْكِ
صيحةُ آثمٍ في الليلِ أبصرَ نجمةَ التوّاب .
أرضٌ فُرْجَةٌ
وأخٌ ينادي أُختَهُ في الجان .

. . . . . « . . . علَّمهُ البيان »
كأنَّها « الرحمن »
ساعدْني لأنهضَ .. يا تراب .

صوت

مضى العمرُ ..
لا قطَفَ القلبُ لوزَ الثناء
ولا هبَّ في الروحِ سيفُ الرضى

مضى العمرُ
حيّا جدائلنا
وانقضى

على عجلٍ هزَّ كوكبَهُ وانثنى !

مضى العمرُ
لا
تتركيني
هنا .

سلالم قديمة

1996/1986

رنين عالق بالصمت

أرغبُ الآن كثيراً في الذهاب
ربّما للمرَّةِ الأولى
وحيداً
مستبدّاً
ضحكةُ الشيطانِ في إثري
وضوْءُ الكتفين
وحشةُ النمرِ الذي يبكي

وفي إثري رنينٌ عالقٌ بالصمتِ
فوضى من تراب .

ربما الموتى أعادوه لِيُرْوى
أو هُمُ الموتى ،
وفي إثري حنينٌ باهتٌ
وصفٌ من الماضي
ووقتٌ للأصابعِ في طلاءِ الباب .

ثياب تخفق في المرايا

. . . . لا شيءَ يتعبني كانتظارِكِ في الليلِ
كالبحثِ عن معدنٍ باردٍ في حطامٍ مضيء
سلَّم صاعدٍ نحو عزلتِهِ
حيثُ يمضي الهواء .

مرَّة قلتُ :
في الأربعينَ
سأدعو الى حَجَري نجمةً من بخورٍ وكحل .

قلتُ :
للأربعين إذن
سوف ألعبُ بالماءِ والرمل
والأربعون لها حجرٌ لا يراهُ العَجُول

ألمْ تسمعي قبلُ منّي كلاماً كهذا الخليطِ العجيبِ
من الناسِ والرملِ والماء ؟

أم أنَّ غيرَكِ كانت هنا قبلُ !
أو ما الذي يحدثُ الآن ؟ !
هل كنتِ في البيتِ أمسِ
تطوفينَ بين المرايا الثَلاثِ
وكانت ثيابُكِ تخفقُ . . . .

فيما أنا واقفٌ في « الضحى »
بين «يسنَ» و « الرعدِ »
و « الشعراء » !

أطواق

وكانت تطوقني من هلالين
والأرضُ متروكةٌ
والزمانُ على حالهِ
وهي شقراءُ من بهجتي .

أيُّ أيامِنا كان أمسِ
وأيُّ الهلالين لي كي ألمَّ النهايةَ من قوسهِ
بعد أن صهلتْ خيلُنا الشارِدة ؟ !

ثمَّ كانت جدائلُها في يدي
والترابُ على شرشفِ المائدة .

المنزل وأنا فيه

-١-

ينبغي أن أسمعَ الخطوَ على أرضِ الحديقة
أولاً أن أسمعَ الخطوَ هناك .

ينبغي أن يُطْرَقَ البابُ
وأن يأتي صديقٌ وينادي .
كلُّهم كانوا ينادونَ من العتمةِ
والعشبُ على الأرضِ ينادي
بينما تبكي اليراعاتُ من الفضّةِ والماءِ
وترتاحُ . . ، .

-٢-

وجهُها في الظلّ
وجهي دونَ مأوى .

-٣-

ما الذي يجهشُ في الليلِ
على سفحٍ من الماءِ
ومَنْ
يَسبحُ في الأردنِّ من ألفين
أو
يَنْدَهُ من أيامِنا .. يوماً
ويبلوَهُ بصبحٍ ومساء ؟ !

-٤-

ما الذي يكسرُ أغصاناً على الأرضِ ويروي
أو
ينادينا سدى ؟

مثلَ خيطٍ من كلابِ الصيد

يمضي الصوتُ في أرضٍ مساء

لمْ نعدْ من رحلةِ الأمسِ
ولم نأتِ غدا !

أبناء النخل

مرّوا علينا
في العشّيةِ أو على أطرافِها
خُطّارَ بيد
أنجبتْهُم نخلةٌ
ورمتْ بهم للوقت
تلك بلادُكُم ، قالت ،
وقد مكَثَتْ هناك
فساكِنوها أشهراً حتى تلين
وغادروا ليلاً
ولا ترِثوا هنا .

مرّوا علينا
يكشفونَ السرَّ والرؤيا
ولا يتعجّلونَ الأمرَ
هونٌ مشيُهم
وحديثُهم شجنُ

لسنا على عجلٍ
شربنا من فراتٍ
وانتَظَرْنا
أطْعَمَتْنا مرأةٌ تمراً
وقبّلت الصغيرَ على محبّتِنا
وأوصتْنا بهِ خيراً
وأوصتْنا . .
بنا .

الصفير

ما الذي قيلَ بالضبط
من كان يطلقُ ذاكَ الصفيرَ
ومن كان يلهثُ من فجوةٍ في الهواءِ المجاورِ

... تبدو الحقولُ القديمةُ منها
وتبدو النساءُ القديماتُ
يبدو الرجالُ القدامى بفرواتِهم ..
ينظرونَ ... ! ،

بطيئون تحملُهم خيلُهم
الصدورُ العريضةُ للخيلِ تشعلُهم
والغبارُ يكلِّلُهم
والفؤوسُ التي فوقَ أكتافِهم
كلَّما اقتربوا أومضتْ كالمرايا !
والذي كان يلهثُ
هل كان يبكي إذن ؟ !

والصفيرُ !
الصفيرُ الذي مثلَ خيطٍ من النارِ
يشرخُ ثوبَ الهواءِ !
الصفيرُ
الصفيرْ
كان يرشدُهم !

السنابكُ تلمعُ في الحقلِ
أكتافُهم في مرايا الفؤوسِ
الفؤوس التي كلّما اقتربوا أومضتْ كالمرايا
المرايا التي تسحبُ الأرضَ من حولِنا

حولَنا يصرخُ الحقلُ تحتَ الهدير !

تغيّر

كنّا رضينا بانتظارِ النهرِ
لو مرّوا عليهِ
وأخبرونا
أو
قطفنا زهرةً من غابةِ الأبنوس
زينّا بها الأيام
أو قلنا :
أحَبونا كثيراً قبل أن يمضوا
بلا عسلٍ إلى ذكرى الكلام
وغيَّرونا

يا إلهي
غيَّرونا !

تماثل

كنّا نوثقُ الإيمان بالرؤيا
وندخلُ خاشعين لآية القرآن
حتى يستفيقَ كتابنا العالي
وحتى تخرجَ الكلماتُ منّا
كي تنادينا

فننصتَ آمنين

كأنّنا الأعداء !
جئنا من هشيمِ الرحلةِ الأولى
مشاةً في حقولِ الماءِ
نصرخُ في الذريعةِ
كي نموتَ على أيادينا .

الجزر

إلى ميكيس تيودوراكس

الجزر

-١-

على الضفّة الأُخرى
حيثُ حوافُّ الجُزُرِ
ومهابطُ الطيورِ
متروكةٌ كبريدٍ لا يذهب
ثمّةَ رجالٌ ينحنونَ على مصائِرهم المخرَّبة .

-٢-

العرباتُ تأتي من الظلالِ
الخيولُ أيضاً
وجنودٌ
وتجّارُ رقيق
وأقفاص

.. كلُّ هذا يحدثُ بصمت
ثمّةَ من انتزعَ الأصواتَ من النسيجِ
وتركَ الأشياء مشغولةً بدأبها .

-٣-

الظهيرةُ تتجمّعُ
مثل حصان مطعون
فيما الشعراءُ ينحنونَ على الحكمةِ المفتّتة
وينقّونَها من موتِ العامّة .

-٤-

ليس ثمّةَ طيورٌ هنا
الماءُ يأكلُ حوافَّ الصخرة
بينما « هُمْ »
يثقبونَ الصدَفَ بأسنانِهم
ويلقطونَها في قلائدَ

القلائدُ تتكوّمُ خلفَهم وتدفعُهُمْ نحوَ الحافّة
وفيما تضيقُ الدائرةُ على أجسادِهم الضامِرة
تذهبُ الخيوطُ في كلٍّ اتجاه
محمّلةً بالصدف
وهُمْ يضغطونَ على القشرةِ الخشنةِ بين النابين
وبين صدَفَتيْن يهمهمونَ تحت أسنانِهم المنخورة
... : ثمّةَ نساءً سيتخلّى عنهنَّ القَراصنةُ
.. يوما !

-٥-

وقد صَعَدَتْ
أصعدُ
ومن الأعلى يبدأُ التلويحُ الذاهلُ بالتجاوزِ
الهضبةُ
وجارتُها
التبدّد
فاستدراجُ الجبلِ
بعد تنحيةِ الطيور

ثمّ انتظارُ السفحِ
حيثُ الغبارُ
سيتراكم !

-٦-

الذريعةُ
الوحيدةُ
المتبقيةُ
الآن
دميَ
.. الصمت
...
هكذا أحبٌّ أن يقولَ
وهو يضعُ
جانباً
رعوياّتِهم المُحْكَمة .

-٧-

تتمدّدُ آلهةٌ بيضاءُ على شرفته
ناقصةٌ أكثرَ مّما يجبُ لآلهةٍ بيضاءَ . .
مدللة
ولسببٍ مطويٍّ وبعيدٍ يبدو الأمرُ قديماً
والشرفةُ
والرجلُ الجالسُ خلفَ روايتهِ
وسيبدو الموسيقيونَ خفافاً
تحتَ فوانيسِ الشارع
المرأةُ في صندوقِ الهاتفِ تبكي
ثمّةَ من يرسلُ أشباحاً في الطرفِ الآخر؛

-٨-

كان نباتُ الزينةِ . .
يحرثُ ظلَّ الشجرِ أمام البيتِ
ويصعدُ أدراجَ المعبدِ . . محبوساً
وقعُ حوافرهِ السوداءِ يهزُّ المذبحَ

حيثُ سيصلُ الثورُ وحيداً دون سهولِ القمحِ
ودون براري الجنّة .

غرافيك / 1994

كلُّ هذا لم يكنْ مقصوداً
لم يكنْ واضحاً

في الريبةِ . . .
حين هبطنَا –
مع تجارٍ وموتى وناجين وحَفَظةٍ
وغطّاسينَ . . .
ودهاة أصحابِ ليل . . –
بمرّاتٍ متربةٍ وملتفّة .

البرقُ الذي أضاءَ التلالَ
رسمَ أشباحاً منحنيةً
ورؤوساً لحيواناتٍ قلقة .

في الخلفِ
وفي الأعلى

الزجاجُ تركَ الليلَ يتدفّقُ إلى الغرفِ
حيثُ يتنفّسُ الآن أشخاصٌ غيرُنا
يراقبونَ بصمتٍ أغراضَ الغرباءِ
ويتذكّرون غيابهم .

الموتى الذين تأخّروا في المشي
لم يصلوا بعدُ
العرباتُ أيضاً
فيما نحن نهبطُ
ونصافحُ
ونتكىء
بينما في المنحدراتِ أولادٌ ينادون على أهلهم
بلهجاتِ القرى

كلُّ هذا
لم يكن مقصوداً
لم يكن مبيّتاً .

غرافيك / 1995

النهاياتُ ليست لنا
ليست لأحد .

النهاياتُ لأشخاصٍ غرباء
لم يولدوا على العرباتِ
أشخاصٍ ... نجدُهم في غبارِ الممرّات
يَحْدُثون في الكلام .

أشخاصٍ تلدُهُم الظلالُ
والحصائرُ المفكّكة ...

وبينما كنّا نحرثُ
كانوا يضحكون
ويملأون جيوبَنا بالتراب !

تلال مالحة

المنازلُ لا ترانا .
كأنها لا ترانا !
الشجرُ لا ينحني إذ نمرُّ
ولايكترثُ بنا الطيرُ .

رغبَتُنا واضحةٌ أمام العبدِ والسيِّد
وأقدارُنا مسرجةٌ
وبناتُنا ينْهَرْنَنا
كلَّما فكَّرنا بالطرق .

نحن الذين بعَثَتنا إليكَ الولاياتُ
بالذهبِ وكُتبِ الموتى ،
مَكَثْنا في الدروبِ والحاناتِ
أثْقَلْنا الأدلاّءَ بالعطايا
وعلَّقْنا الحريرَ على الخرائبِ

وبالتذّكرِ أغلَقْنا عيون الموتى
وليس لنا ملكٌ
ولا قضاة .
النشيدُ يتركُنا وحدَنا
فنصعدُ تلالاً مالحةً
ومثل رتلِ مشاةٍ ميّتين
نبدو للقوافلِ .

كثيرون كالبلوى
قليلون كالرضى ،

هكذا أصبحنا ترابَ الروايةِ
وطينَها ... ، .

الموتُ يتعقّبُ أسماءَنا
والضبابُ يخلطُها مع الجبل
والرعاةُ يهشّونها بالعصيِّ
بينما تتنفّسُ جيادُنا في .. نومنا .
فقط في الليلِ

ستنادي امرأةٌ على ابنها إسماعيل
: يا إسماعيلُ
يا إسماعيل
يا ....
إسمع .... إيل

فترتجفُ البغالُ في الخرائبِ
والهداهدُ في السرو
والغزلانُ في المنحدراتِ
والأفاعي في الآبارِ الميتة
وننهضُ كما نهضنا !

ماذا نفعلُ لأجلكَ
حين يُنْفَخُ في البوقِ
من أجلنا؟ !

ماذا نفعلُ لأجلكَ
وكلَّما غَفَونا
نرى سواك ؟ !

نبوءة

منذ أن حَمَلَها
وهو يكذبُ

الجبلُ لم يَعُدْ منصفاً
كما في الرواية !
والنومُ لا يكفي للحلم
حيثُ الموتى يتجوّلون
كتماثيلَ ناقصة .

لا مكان هنا للمصافحة
حيث يحّيي المارّةُ ظلالَهم
ويولِمونَ لها .

ولم يتعلّم فطنةَ المرآة
بعد !
... منذ أن حَمَلَها على كتفيه

مثل خبرٍ سيِّىء
وهو يتعثَّرُ في أحلامهِ
كمن لا يرى !

الفهرس

منذ بداياته الأولى، كان واضحاً ميل غسّان زقطان إلى استضافة اليوميّ والعاديّ في قصيدته، وانهماكه في رجّه وتصعيده واستنطاق شعريّته؛ وكان بذلك يؤسّس لعالم قصيدته الخاصّ، لا بصفته عالم رؤى وكيّنات، بل بصفته عالم تفاصيل.

هكذا تنسب قصيدة غسّان إلى اليوميّ والخبريّ والحميم. لكنّها لم تستسلم لعاديّة العاديّ ولا لافتضاحه، بل كدحت عليه وشفّفته بنزعة تأمّليّة واضحة، كأنّها تعيد اكتشافه.

إنّ شعريّة **(العاديّ)** هنا تكمن في قدرته على تفييض الذاكرة وجعلها تتدفّق وتحيا. هكذا يتقدّم الماضي، في القصيدة، بكلّ مكوّناته التي لا تموت: **(خطى فرحانة / يد البنت / غرفة الأرملة / محمّد / المعلّم / الكرامة / البيت / الأب / الأخت / الأسرة...إلخ).**

كلّ شيء هنا يتذكّر في محاولة لاسترداد المفقودات الجميلة، التي غادرت إلى الماضي. ولعلّ هذا هو ما يمنح قصيدة غسّان نكهة رومنسيّة عميقة، واستشعاراً حزيناً للزمن.

(شيء سيشبه أن نعيد إلى التأمّل
غرفة الماضي وروح المزهريّة
مثلما
طار الحمام،
كما يقول الشاعر العربيّ،
أو حطّ الحمامُ.)

إنّ غرفة الماضي هي المكان الذي يقيم فيه العاديّ بكلّ حميميّته. لذا حين يمضي الشاعر إلى قصيدته، فإنّه يستحضر عدّة الماضي اللغويّة كلّها: **(كان / أمس / الأفعال الماضية / أدوات النفي / أدوات التمنّي / التذكّر / الموت ...إلخ).** بحيث تصبح القصيدة نصب مكان الماضي. وبحيث نكتشف، في النهاية، أنّ **(غرفة الماضي)** تقترن بروح المزهريّة لا المزهريّة فحسب: بروح الشيء لا بالشيء نفسه.

إنّ هذه المجموعة الجديدة لغسّان زقطان، ليست مجرّد حالة تكاثر شعريّ، بل هي أولاً تحصيل صعوديّ، وتحيّز إلى حيّز من الشعر.

زهير أبو شايب

حرية الكلمة
99
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
ص.ب: ١١-٥٤٦٠